انطلاق

«كل ينال وإن تزاحمت الأماني مبتغاه»
«في عالم خصب تمهل من خصوبته ثراه»

•

في مطلع الوادي وقد ولّى عن الوادي سناهْ
وتجاوبت في المغرب الغيمان أصداء الرعاهْ
ألقى على كتفيه شملته وهمّ إلى عصاه
ومضى تزود المرج عيناه ويصغي للشياهْ

يتسمع الصوت الذي تحلو بنبرته السهولْ
أصغى من الناي المسلسل عند أحلام الاصيل
هي شاته سَمَرُ الحقول وفرحة الكوخ الجميل
سمراء كالفجر الوليد يجر مُطرفه البليل

ومشى يغني في خفوت نحو منعطف الطريق
يسعى ليلقاها وفي عينيه للنجوى بريق
وبشائر الأمل الجميل تهز خاطره الرقيق
عجباً ! لقد سكن المكان فلا أنيس ولا رفيق

لم يلمح الشاةَ الحبيبة تقصد الراعي الحبيب
والريح لم تحمل اليه ثغاءها عند الغروب
هو لا يراها بين قطعان تزاحم في الدروب
يا لهفتا ! ماذا تُرى قد عاقها ؟ ومتى تؤوب

وترددت في فكره المكدود أوهام ثقال
ذكر الغرابَ وكيف صاح على غصون البرتقال
والكلب كيف عوى ومرّغ وجهه بين التلال
يا شؤم هذا اليوم تسري فيه رائحة الزوال .

هوذا يذود بكفه عن عينه ألقَ الشعاعْ
ويدور يرقب كل رابية وينظر كل قاعْ
ويعود يرنو خلف رعيان إلى المأوى سراع
يا ويحهم رجعوا !.. وخُلّف وحده القلقُ المراع

أيؤوب يسحب بعد غيبته عصاه في انكسار
أيغادر الشاة الحبيبة في الظلام بلا قرار
ويروح لم يسبقه في الدرب الطويل لها غبار ؟
بئس الرواح اذن . وما أخلى من الأنس الديار

ومضى على وجل شرود اللب يعثر في خطاه
وفؤاده القلق الخفوق يكاد يتهم الاله
فيرده المصبر والايمان باق من نهاه
ويعود يدعوها على أمل ويرفع من نداه :

يا فتنة الراعي لقد رانت على الافق الغيوم
وخبا من الشفق اللهيب فعاد كالطلل القديم
وتأوهت في الغاب أرواح أقضّتها الكلوم
وسعت به الاشباح في سترٍ من الغسق البهيم
أشباح صرعى غالها في الغاب شيطان رجيم
لبست قناعاً من دم وتسربلت كفنَ الرميم
رقصت على زبد الجراح وقد نزفن من الصميم
والريح تعزف لحنها المشنوء كالنفس الكظيم ...
وعمالق الشجر الرهيب تحفّ أجواز النجوم
وظلالها من تحتها متموجات كالسديم

يا فتنة الراعي لقد طويت على الشر الهضاب

وتلفعت بالصمت أودية تضجّ بها الرغـــاب
في كل مربـــأة تأججُ مقلة ويصرّ ناب
أنى خطوت فللردى خطو وللغدر انسياب

سكنت على العشب الصلال تدير للفتك اللعاب
متكورات كالهشيم فما تحس ولا تهـــاب
وتربصت خلف الصخور الصمّ عادية الذئاب
غرثى تلوك الطين من سغبٍ وتستاف التراب
وتعض بالأذناب في خبل وتستجـدي الشعاب
تعوي فينتفض الكرى وتهز أستار الضباب

•

أما الشرود فـــأسلمت للغابة الكبرى خطاها
يقتادها شوق إلى المجهول ينفخ في قواهـــا
كم ليلة راحت مع الراعي يجاذبها هواهـا
فالآن فلتُقدِم عـلى الادغال حتى منتهاهـا

كم ليلة وقفت أمـام الغاب يعصرها الوفاءْ
وغماغم الدغل العجيب يزيد فتنتهـا الخفاء
وروائح الورق المخمر في الثرى روحُ اشتهاء
كم فوق هذي الارض من دنيا ! وكم تحت السماء

عجبت من الكوخ الكئيب وكيف طاب لها المقام
في منزل مستوحشٍ خشنٍ دعائمه حطـام
الزاد في اركانه حطب ومضجعه رغـام
يتفلسف الراعي ويزعم في بساطته السلام !

وتقدمت بخطى المحاذر والدوار بهـا يميدْ
من رهبة الجنح المديد ونشوة الكون الجديد
ماذا وراء الستر من غيب ؟ وما خلف الحدود ؟
ليت الظلام يشف عما قد أجنّ من الوجود

وتقدمت فاذا الظلام كأنه صبح منير
ألفته عيناهـــا فمزقت الحواجب والستور
نكرت هنالك ما وعته عن الظلام من الشرور
لا ضلة العميان تلقـــاها ولا صمت القبور !

شهدت هناك توثب الأحياء للكون الرحيب
وعصارةَ الحيوات يُسمع في الغصون لها دبيب
وتنفّسَ الأرض الدفيئة وانبعاثات الطيوب
وتشقق الطين المضمخ عن وليدات الغيـــوب

وتملّؤ « العلّيق » واللبلاب من روح البقـــاءْ
تسمو فيزحم منكب الدوح الفتي الى الفضاءْ
وغضارة « الفطر » الضعيف يكاد يغلبه الحيـاءْ
لم يجْفُه الماءُ الرويُّ ولا تنكبه الهواء . —

وتقدمت فرأت عوالم لا يحدّ لهـــا براح
تتداح في ارض مشعبة وآفاق فساح ..
وتضيق حتى مـــا يمدّ الطير فيهن الجنـــاح
وتذبذب القلب المغامر بين ضيـــق وارتياح

وتجاوبت في الغابة الفرعـــاء ثرثرة الرياح
ممزوجة الأصوات لا همـــس يبين ولا صياح
وسرى الصفير مع الهدير وخالط الضحك النواح
وحشية الأنغام بنت الغـــاب لم تعزف براح

والسيل ما أعتى توثبه على هـــام الصخور
متحـــدر الأمواج منقضاً بأجنحة النســـور
زبد كألوية الضياء ولجـــة كدجى القبور
وهمَاهِمٌ مكبوتة كالاثم في جوف الضمـــير

خاضت اليه وزاحمت بقوى موثّقة قـــواه
القـــاع يجذبها فتهوى ثم تنشلهـــا ذراه
في القاع إحساس وفوق الماء احســـاس سواه
بوركت يا سيل الحياة جريت في عنف الحياه !

القاهرة

عبد القادر القط